الحكماء في الثيوصوفية

ترجمة: سعد محمود

Saad_ysf@yahoo.com

إن الكون يتطور الى الأمام باستمرار. ومستويات الوعي تتابع ترقيها من مملكة المعادن الى الممالك التي تليها حتى تبلغ المملكة البشرية. لقد تطورنا الى المستوى الإنساني، لكن تقدمنا لن يتوقف هنا. فنحن نستعد للصعود، في خاتمة المطاف، الى المستوى التالي، الى المملكة الخامسة.

وهناك فئة من البشر قد بلغوا هذه المملكة، فانتقل وعيهم الى الجسد الحدسي. ويطلق على هؤلاء لقب المتحررين، لأنهم حرروا وعيهم من الجسد المادي والنفسي والفكري والسببي. لقد بلغوا المرتبة الرابعة - مرتبة التحرر، بعد أن حققوا الترقي الرابع. فالترقي الأول يضمن للإنسان التحرر من الجسد المادي، والثاني يضمن له التحرر من الجسد النفسي، والثالث يعتقه من الجسد الفكري. أما الحكماء فقد بلغوا المرتبة الخامسة - مرتبة الحكمة، وأنجزوا الترقي الخامس، وانتقل وعيهم الى الجسد الروحي.

إن هناك سبعة خيارات أمام الحكيم. وقد اختارت مجموعة من هؤلاء البشر الكاملين عدم الدخول في العالم الروحي (النيرفانا)، بل البقاء مع البشرية ومساعدتنا، نحن الذين ما زلنا نتجسد في العالم المادي، على الوصول الى المستوى التالي. ينتظم هؤلاء الحكماء في هيئة

تُسمى الأخوية البيضاء العظيمة. وقد اهتم اثنان من حكماء هذه الأخوية في القرن التاسع عشر بإعادة نشر الحكمة المقدسة، فكانت النتيجة إيفاد السيدة بلافاتسكي الى الغرب خاصة، والى الجنس البشري عامة، من اجل كشف تعاليم الحكمة الإلهية؛ ولهذا السبب تأسست جمعية الحكمة الإلهية (الجمعية الثيوصوفية). هذان الحكيمان هما:

الحكيـــــــم موريا

والحكيم كوثومي

يمكن تقسيم العدد القليل من الحكماء الذين لا زالوا يعملون من اجلنا الى فئتين - الذين يمتلكون جسدا ماديا، والذين لا يمتلكونه. وغالبا ما يُطلق على الفئة الأخيرة الأولياء (نيرماناكايا). إنهم الحكماء الذين تموت أجسادهم المادية، وبدلا من الذهاب الى العالم الروحي حيث الغبطة والسلام الأبدي، يقررون البقاء في العالم النفسي، وتكريس وقتهم وجهدهم من اجل منفعة الجنس البشري؛ وذلك عن طريق توليد طاقة روحية، وتخزينها في مستودعات خاصة. وعلى هذه الطاقة يعتمد الحكماء وتلاميذهم من اجل تنفيذ مخططاتهم الرامية لمساعدة البشر في ترقيهم الأخلاقي والفكري والروحي. والعدد الأقل من الحكماء الذين يحتفظون بجسد مادي يبقى على اتصال وثيق بنا، من اجل تولي مراكز معينة، والقيام بالمهمات الضرورية لإدامة تطورنا؛ ويطلق اسم الأخوية البيضاء العظيمة وكذلك الهيئة العرفانية على المنظمة التي تضمهم.

إنهم إذن عدد محدود من البشر المتقدمين في تطورهم. وهم لا ينتسبون لأمة معينة، بل الى العالم اجمع. كما أنهم لا يعيشون معا بل متفرقين، رغم كونهم يبقون على اتصال دائم مع بعضهم البعض في العوالم العليا. وبسبب تحررهم من ضرورة العودة الى التجسد، فعندما يستهلك جسد احدهم يعمد الى اختيار أي جسد مناسب للمهمة التي ينوي القيام بها. فلا أهمية إذن لجنسية أو قومية الجسد الذي يختارونه. ففي الوقت الحاضر (١٩١٧)، يستعمل بضعة منهم أجسادا هندية، كما أن واحدا منهم تبتي، والآخر صيني، بالإضافة الى أن من بينهم اثنين من الانكليز، والآخر ايطالي، وواحد هنغاري، والآخر من بلاد الشام،

وقد ولد احدهم في جزيرة قبرص. إن قومية احد الأجساد أمر غير مهم، كما سبق أن قلت، وقد ذكرت هؤلاء من اجل أن أوضح أن من الخطأ الاعتقاد أن أعضاء الهيئة ينتسبون لجنس واحد حصرا. (ليدبيتر، الحياة الباطنية، ص.٣-٤)

الأخوة الكبار

" من الجيد أن نحاول فهم هؤلاء العظماء، ليس فقط لمجرد حب الاستطلاع، بل لكي ندركهم على حقيقتهم، ونعلم أنهم بشر مثلنا، يتفاوتون فيما بينهم كما هو الحال معنا، ولكن على مستوى أعلى بكثير. إن صفات الحكمة والقوة والمحبة حاضرة فيهم بالتساوي، رغم أنهم ليسوا متشابهين على الإطلاق. إنهم أفراد مثلنا. إنهم يتربعون على قمة سلّم الإنسانية، لكننا يجب ألا ننسى أننا في مكان ما على درجاته الدنيا، وأننا في يوم ما سنصل كذلك الى مستواهم." (ليدبيتر، الحياة الباطنية، ص ١٠)

إن الحكماء الذين قدمتهم الحكمة الإلهية إلينا هم ببساطة تلاميذ متقدمين في مدرسة تجارب الحياة. إنهم أعضاء في الجماعة التطورية التي ننتسب إليها، وليسوا زوارا من كواكب أخرى. والحكماء ارفع منزلة منا لأنهم اكتسبوا فحسب معرفة بقوانين الحياة وسيطروا على طاقاتها التي لا نزال نتصارع معها في محاولة التحكم بها. وقد أطلق عليهم مريدو الحكمة الإلهية كذلك" البشر الكاملين "، فهم الثمار الناضجة لتجربتنا الأرضية، والنفوس المخلصة من الجنس البشري التي شقت طريقها لبلوغ مكانة الأنبياء، ففازوا بالمرتبة العليا التي جعلتهم أهلا للتكليف الرباني. ليس الحكماء آلهة نزلوا الى الأرض، بل بشر فانين بلغوا مرتبة الرسل. وهم لا يطلبون منا أن نقدسهم، أو نعبدهم، إنهم لا يسألوننا إلا الالتزام المتوقع بمبادئ الحق والحقيقة، وسلوك طريق الاستقامة في الحياة. إنهم إخوتنا الكبار، وليسوا آلهة غير مكترثين، وقد يبلغ الأمر بهم أن يمثلوا أمامنا ويمنحوننا امتياز التعاون معهم إذا ما أثبتنا قدرتنا على العمل في سبيل الإنسانية دون منافع شخصية. إنهم ليسوا أسيادنا بمعنى امتلاكهم لحق التسلط علينا؛ بل هم معلمي الحكمة والتعاطف. لقد تخلوا عن حقهم في التقدم نحو المزيد من الإنجازات في مجال التطور، وظلوا على اتصال مع البشر من اجل يلقوا بثقل قدراتهم الذاتية لترجيح كفة قوى التطور، وذلك بدافع التعاطف

اللامحدود نحو الجنس البشري. (ألفن بويد كوهن، الثيوصوفية: انبعاث معاصر لحكمة عريقة، ص ١٤٧)

عددهم قليل، لكن مساعدتهم عظيمة

إن هناك عدد قليل من الحكماء الذين يحتفظون بأجساد مادية في سبيل دعم عملية تطوير العالم - فعددهم لا يتجاوز الستين. ولا بد أن نتذكر أن معظمهم لا يتخذ تلاميذ لتدريبهم، بسبب انشغالهم بأعمال أخرى. ويطلق على هؤلاء القلة من الحكماء الذين يأخذون على عاتقهم مهمة التدريب المعلمين. ورغم قلة عددهم، فان دورهم عظيم الأهمية؛ إذ لولا مساعدتهم سيكون من المستحيل على الإنسان دخول بوابة الترقي الروحي. (ليدبيتر، الحياة الباطنية، ص ١٢)

الحكماء يوجهون عملية الارتقاء بالعالم

إن عملية تطور العالم لا تسير على غير هدى، ولا هي متروكة لتدبر أمرها بنفسها، كما يفترض الناس بتسرع في اغلب الأحيان؛ بل على العكس، إنها عملية مُوجهة. ذلك أن هيئة الحكماء هذه تشرف على إدارتها، وهي تديرها بالقدر الذي لا يمس حرية إرادة البشر. فأعضاء الأخوية العظيمة على الدوام يحاولون، من خلال مندوبيهم، العمل مع الناس المهمين في العالم، وذلك بان يوحون لهم بالنصائح والاقتراحات، مثابرين على دفعهم الى الأمام باتجاه مستقبل عظيم من الأخوة العالمية وذلك بعد انتهاء عصر الحروب (لم ينته هذا العصر بعد). (ليدبيتر، الحياة الباطنية، ص ٩)

البشر الكاملين

لقد تمكن المعلمون من قهر كل المعوقات البشرية بفضل قوة شخصياتهم، وأكملوا تطورهم على أحسن ما يكون، وسيطروا على كل القوى الطبيعية للحياة. إنهم يقفون على قمة الكفاح البشري. لقد ارتفعوا فوق صفة الفناء ليبلغوا الخلود، وانتقلوا من المرحلة الإنسانية الى المرحلة الملائكية ... ومن خلال المبدأ الروحي فيهم، فقد ارتقوا بمستوى طبيعتهم الجسدية (نفسهم الحيوانية) حتى تكون منسجمة مع الجوهر الرباني لذاتهم العليا. وبعد أن بلغوا هذا المستوى الرفيع، فإنهم يقفون بصبر متشوقين لجذب الإنسانية نحوهم. (ألفن بويد كوهن، الثيوصوفية: انبعاث معاصر لحكمة العريقة، ص ١٤٨)

الحكيمان موريا وكوثومي

إن الحكمين موريا وكوثومي هما من شرع بنشر مبادئ الحكمة العريقة في القرن التاسع عشر. وكانت النتيجة ظهور جمعية الحكمة الإلهية مع كل تعاليمها. وقد اختارا السيدة بلافاتسكي لبعث هذه الفلسفة المقدسة، كما اختارا هنري اولكت لتأسيس وإدارة الجمعية.

لماذا لم يتصل أحد المعلمين بي؟

يعتقد العديد من الناس بأنهم مؤهلين ومستعدين لبدء التدريب من اجل بلوغ الترقي الأول، لكن أحدا من المعلمين لم يحضر إليهم حتى الآن. وهكذا ينتابهم الإحساس بأنه قد تم

تجاهلهم. من المهم أن نعلم بأنه لا يمكن تجاهل أي شخص، لان المعلمين يراقبون الناس على الدوام، وحالما يكون الإنسان مستعدا، فسوف يتقربون إليه.

'' ... فقد يتمتع الإنسان بالعديد من المؤهلات التي تجعله نافعا كمساعد، لكن عيبا كبيرا واحدا ربما يشكل في الوقت عينه عقبة دائمة في طريقه، مما يؤدي على الأرجح الى تعطيل الكثير من الخدمات الجيدة التي كان يمكن أن يقدمها. وليس هناك معلم يمكن أن يقبل بمثل هذا التلميذ؛ لكنه قد يقول له: ' حاول أن تتغلب على هذا العيب فيك، وعندما تنجح سأتخذك مساعدا لي، وسوف أقوم بتدريبك لتتطور نحو الأفضل.'

'' إن العديد من طلابنا المجدين تملؤهم المشاعر الإيثارية وحب الخير، وبسبب خصالهم هذه يدركون بأنهم مختلفين عن بقية البشر، الأمر الذي يدفعهم للتساؤل أحيانا، ' إنني في بالغ الشوق للعمل من اجل الإنسانية؛ فلماذا لا يدربني المعلم ويصلح من شأني؟'

'' لنواجه الحقائق بجرأة. لن يدربك المعلم لأنك لا تزال متخما بكل أنواع النقائص الصغيرة. لا شك أن ما تشعر به في أعماق نفسك هو الحق بعينه، وهو أن ميلك لعمل الخير، ورقة مشاعرك، ورغبتك الجادة في تقديم العون، هي خصال عظيمة تفوق بكثير كل تلك العيوب الطفيفة. لكن حاول أن تدرك بان هناك الآلاف من الناس الخيرين وحسني النوايا، وانك تختلف عنهم فحسب في كونك تمتلك معرفة أكثر منهم بقليل، لذا فأنت قادر على توجيه حبك للخير نحو نشاطات مفيدة على نحو أفضل منهم. ولو كانت هذه هي كل المواصفات المطلوبة للقبول، فسوف يكون لكل معلم آلاف التلاميذ، وسينشغل طوال الوقت في محاولة تدريب كل هؤلاء الناس، مع كل عيوبهم النفسية والجسدية الصغيرة، مما يعرض للإهمال التام عمله المثمر مع الذوات في العوالم السببية العليا.

'' إذن، فلكي تكون طالبا عند المعلم ينبغي، قبل كل شيء، ان تتمتع بالقدرة على النظر الى الحياة كما يراها المعلم، وذلك من زاوية تقديم ما هو أفضل فحسب لتطور العالم. على الطالب ان يكون على أتم الاستعداد لتجاهل نفسه، لطمس شخصيته بالكامل، ولا بد ان يفهم بان هذا ليس تعبيرا شعريا أو بدعة كلامية، بل يجب تطبيقه حرفيا - إن عليه ان يتخلى عن كل رغباته الشخصية، وان يكون مستعدا لترتيب مجمل حياته وفقا للعمل المناط به. فكم هو

عدد الأشخاص المستعدين بإخلاص للبدء بهذه الخطوة الأولى من اجل ان يتم قبوله كمتدرب؟ ...

'' ان عدم قبول مثل هذا الإنسان لا يعني ان المعلم الروحي يفتقر الى التعاطف أو الصبر؛ بل ان الأمر ببساطة لا يمثل استثمارا مجديا لوقته وطاقته، والتوظيف الأمثل لكليهما هو احد أهم واجباته. واذا ما أحس إنسان بأنه جدير بالقبول كتلميذ، وتعجب من سبب عدم حصوله حتى الآن على هذا الامتياز، فليراقب نفسه عن كثب ليوم واحد، وليسأل نفسه عما إذا كانت قد راودته خلال هذا اليوم أية أفكار أو مشاعر غير لائقة من وجهة نظر المعلم. تذكر بأنه ليست فقط الأفكار السيئة والطائشة غير مناسبة بالنسبة إليه، بل كذلك الأفكار التافهة، والانتقادية، والمزعجة - والأهم من ذلك الأفكار الأنانية، فمن منا كفء لهذه المؤهلات؟ '' (ليدبيتر، الحياة الباطنية، ص ١٨-٢٠)

والخطوة الأخرى في طريق التدريب الروحي هي الترقيات. وللمعلمين دور مهم في بلوغ مرحلة الترقي. فعندما يختارون احدهم كتلميذ، فانهم يشرعون بتدريبه ليكون مستعدا لمثل هذا التطور.

رسائل الحكماء

ان مصدر معظم ما نعلمه عن المعلمين الروحيين هو عملهم مع مؤسسي جمعية الحكمة الإلهية، السيدة بلافاتسكي والعقيد هنري اولكت. مع ذلك، فثمة مصدر آخر للمعلومات عنهم يتمثل في الرسائل التي بعثوها لألفريد سينت، الذي كان يعيش في الهند في مطلع ثمانينيات القرن التاسع عشر.

'' اعتمد الحكيمان كوثومي وموريا في إلهام تعاليم الحكمة الإلهية على وسائل متعددة، من ضمنها سلسلة طويلة من المراسلات بينهما وبين عدد من أعضاء جمعية الحكمة الإلهية من

ذوي القدرات الفكرية الممتازة؛ وكان ألفريد سينت الأبرز بينهم، ومن بعده في الأهمية يأتي هيوم وآخرون. لكن هؤلاء الأعضاء لم يكونوا يتمتعون بقدر عال من الاستنارة الروحية. كان سينت رئيس تحرير لجريدة بايونير في مدينة سملا شمال الهند، وهو صحفي انكليزي يتمتع بمكانة ومؤهلات عالية. ورغم انه لم يبدِ أي ميول مميزة نحو العرفانية والعلوم الباطنية، فقد أسبغ عليه الحكميان اهتمامهما ورعايتهما، وتم اعتماده كمتلقي لرسائلهما خلال فترة امتدت لثلاث أو أربع سنوات، ابتداء من ١٨٧٩. وقد تم استلام معظم الرسائل في منزله في مدينة سملا، وبعد ذلك في الله آباد، وهي موجهة إليه شخصيا ومعنونة باسمه. كانت معظم الرسائل، ان لم تكن جميعها، تتضمن أجوبة عن استفسارات سُمح له بطرحها على معلمه، لا بل تم تشجيعه على ذلك.

'' وكان كتاب السيد سينت (العالم العرفاني) هو اول اعلان مباشر للغرب عن وجود الحكماء وعن نشاطاتهم كأولياء لجمعية الحكمة الإلهية. فلقد اخذ على عاتقه المهمة الشاقة في اثبات مكانة هؤلاء العظماء من حيث امتلاكهم للمعرفة العليا والحكمة السامية، على قدر ما سمحت به الأدلة التي بين يديه والظواهر الخارقة التي شهدها بنفسه. ان عمله هذا عزز ما قامت به السيدة بلافاتسكي في كتابها (إيزيس مكشوف عنها النقاب)، لكنه مضى ابعد من ذلك في تأكيد صلة جمعية الحكمة الإلهية مع هيئة من البشر الكاملين - الأخوية البيضاء العظيمة.'' (ألفن بويد كوهن، الثيوصوفية: انبعاث معاصر لحكمة عريقة، ص ١٥٠-١٥١) وقد طُبعت الرسائل في كتاب بعنوان (رسائل الحكماء الى ألفريد سينت) من قبل باركر. كما يُعد كتاب ليدبيتر (المعلمين والطريق) مصدرا ممتازا للمعلومات عنهم. ويوضح هذا الكتاب جوانب متعددة من نشاطات الحكماء، وكيف يمكن للإنسان إعداد نفسه للقبول كواحد من تلاميذهم.

******

مترجمة بتصرف عن الكتاب التالي، وهو نسخة إلكترونية:

Nick Mojzesz, Lessons in Theosophy, ch.20, eBook.